

عنوان المقال: السرد والهوية- دراسة في روايتي "أشباح الجحيم" و"فضل الليل على النهار" - لياسمينه خضرا

د. عطى الله الناصر كلية الآداب جامعة ابن خلدون تيارت

Narrative and Identity - A study of the novels "Ghosts of Hell" and "The Preference of Night over Day" - by Yasmina Khadra

تاريخ الاستلام: ٢٨/٠٤/٢٠٢٤ القبول: ٢٠/٠٥/٢٠٢٤ النشر: ١٨/٠٧/٢٠٢٤

ملخص مقال "السرد والهوية"

لا تزال مشكلة الهوية تلقي بثقلها على الأدباء والفلاسفة، في كلّ العصور. وإن تكرارها في كلّ الحقب الأدبية، وفي كلّ النصوص هو نتيجة ما تركه من آثار على الوعي الذاتي والجمعي لدى منتجي النصوص وقراءها، وعلى التاريخ الأدبي بشكل عام. فالهوية القومية والهوية الثقافية هي من أعقد القضايا وأكثرها جدلا في السرد الروائي. وكثيرا ما تنشط هذه الموضوعات أثناء الأزمات السياسية والتاريخية، تلك التي تشعر فيها الجماعة أنها مهددة في عمقها الثقافي والحضاري، وأنّ خطرا ما يهدّد وجودها من أساسه. في هذا المقال نروم معالجة السرد الروائي لهذه القضية الفلسفية ونأخذ مثالين لذلك، وهما روايتان للكاتب الفرونكوفوني ذي الأصول الجزائرية "ياسمينه خضرا" وهما "أشباح الجحيم" و"فضل الليل على النهار".

الكلمات المفتاحية :

سرد، هوية، وعي ذاتي، وعي جمعي، اختلاف ثقافي.

Summary of the article (Narrative and identity)

There is still the problem of identity which remains as a weight on writers and philosophes in all âges and its répétition in all literary périods and all textes is a result of what it leaves as effects in self and collective consciousness for those who produce textes and their readers and the History of literature in general.

The nationalist and the cultural identity are amongst the complex issue and lost controversial in the novel narrative and most of the time these subjects are active during political and historical crises in which the community feels that it is threatened in its cultural and civilised depth and that some danger is threatening its existence from the basis.

In this article We want to make a research in the treatment of the narrative to this delicate issue. We take for that two models being the two Novels of Yasmina Khadra. (The preference of night over the day) and the (Ghosts of Hell).

In this article, we deal with the narrative narrative of this philosophical issue. We take two examples of this: the two novels by the Franco-Algerian writer Yasmina Khadra, the ghosts of hell and the virtue of the night upon the day.

Key words

Narration, Identity, self-awareness, Collective Awareness ; Cultural difference

— مقدمة:

قد يحلو لكثير من علماء الانثروبولوجيا الثقافية النظر إلى الظاهرة الاستعمارية باعتبارها عملية مثاقفة بالإكراه، لا تلبث أن تدجّن موضوعها، وتروّضه، من خلال تجريده من كل ما يشدّه إلى ذاته الجماعية. غير أن المثاقفة تعني أساسا تكافؤ أطراف المعادلة الثقافية، وهذا لا ينطبق على الحالة الاستعمارية، بغض النظر عن موضوعها وزمنها. لذلك كان الاستعمار حالة رجّح عنيّف للهوية الجماعية والفردية على حدّ سواء. وبما أن الإنسان هو أولاً وأخيراً كائن ثقافيّ، فإنه لا يبدي نزوعاً عنفويّاً إلا إذا شعر أنه مهدّد في هويّته الثقافية. إنّ الاختلاف الثقافي الذي تُحسّر فيه الجماعة الإثنية التي تتعرض للغزو يُنظر إليه على أنه تهديد جدّي للهوية المحلية. ومن هنا نلغي أنفسنا أمام حالات صراع ثقافي عنيف بين المستعمر والمستعمر، بين الأجنبي والمحليّ، بين الغريب والأليف، بين الأنا والآخر. وأسباب هذا الصراع ليست الأرض فقط، ولا المصالح المادية، بل إنّ الهويّات الثقافية التي أصبحت تتقاسم المكان، لم تتحمّل التعايش ولم تتقبّل التواجد في المكان نفسه، وترفض التفاوض حول اقتسام الوجود.

وسنرى تمثيلاً لهذه المواجهة الناجمة عن الاختلاف الثقافي من خلال حالة استعمار حديث، تعرّضت له دولة العراق —مهد الحضارة العربية ومركز ثقافتها— في العشرية الأخيرة من القرن الماضي على يد أمريكا، وهي أعظم قوّة عسكرية عالمياً؛ ورغم قوتها التي لا تضاهي، فقد تعرضت إلى مقاومة مبرّرة ودموية لم تتمكن معها من المحافظة على غنائمها، ممّا اضطرّها إلى استبدال أدوات القتال، واستراتيجياتها. نحاول في هذا المقال الموسوم بـ "السرد والهوية" أن نخلل رواية "أشباح الجحيم" لياسمينه خضرا، وهي تمثيل بليغ للطاقت الأسطورية التي تولّدها الإرادة في الدفاع عن الهوية، حالما تشعر الذات أنّها مهدّدة في عمقها النفسي والحضاري. كيف مثل السرد الهويّات المتقاتلة وكيف جسّد التشنجات الثقافية للذات المقهورة، وكيدها لخصومها ومناوئيتها، كيف تصادى هذا السرد جمالياً وفكرياً مع آلام المعدّبين والمسحوقين، كلّ ذلك نطمح للكشف عنه من خلال هذه المداخلة.

١. مفهوم الهوية:

من أشدّ الموضوعات انفلاتاً عن الإدراك والتحديد، الهوية. فلا نكاد نطمئنّ إلى تعريف ونحاول الإمساك به، حتّى ينزلق من بين أناملنا فلا نعثر إلا على سراب. "ليس ثمة ما هو أقلّ تحديداً وأكثر تشبّثاً ممّا هي هويّة كل واحد. ليس ثمة ما يصعب أن نحرزه أكثر من وجهنا حين لا تكون موجودة مرآة تعكس صورته"^١. إن صعوبة إدراك ذاتنا تكمن في الباب من التفكير الفلسفي الحديث في الآخريّة، فالذات لا تُدرك إلا بالنسبة لآخر غائب وحاضر، قريب وغريب، أليفٌ وبعيدٌ. هذا الآخر الذي يسكنني ويحدّدي، يشكّلني ليدمرني. إن حضوره يكاد يغيبني، وغيبه يوشك أن يُتلف صورتي ويوهن صوتي المنكفيّ باتجاه الباطن.

يقابل مصطلح "الهوية" كلمة (identité) في اللغة الفرنسية. وهي مفردة من أصل لاتيني وتعني "الشيء نفسه، أو الشيء الذي هو ما هو عليه، أي أنّ الشيء له الطّبيعة نفسها التي للشيء الآخر. كما يعني هذا المصطلح في اللغة الفرنسية مجموع المواصفات التي تجعل من شخص ما هو عينه شخصٌ معروفٌ أم متعَيّن^٢. من هذا المنظور، تعني الهوية المطابقة، أي مطابقة الذات لما هي عليه من تشكيلات ثقافية وعادات سلوكية وأنماط فكرية متوارثة عن أسلاف لا نعرفهم في العادة، ويستحضرهم خيالنا التاريخي على أنهم ما نحن عليه. ف"الهوية بهذا المعنى نتاج عملية تشكيل تقوم به جماعات تجمعها ضروب متعدّدة من القربان الحقيقية أو المتخيّلة. وهو ما يجعلها أقرب ما تكون إلى ما يسميه بينديكت أندرسن (الجماعات المتخيّلة"^٣

أما في اللغة العربية فيحينا مصطلح الهوية من حيث الأصل الاشتقاقي إلى الضمير "هو"، وهو ضمير المفرد الغائب، وسيكون لهذا المدلول الشخصي أثره على المعنى الفلسفي لهذا المشتق. ويدل مبدئياً على سمات الإنسان أو صفاته الخاصة الجسمية والنفسية والعقلية التي تميزه عن غيره وتصنع فرادته. وعلى صعيد المعنى الاصطلاحي، فالهوية بناءً تاريخي مفتوح، وهي تكوين متعدّد ومتنوّع زمنيًا وتاريخيًا. فالهوية موضوع في طور التكوين والتشكل التاريخي لا بصورة ثابتة بل من خلال خطابات التاريخ والثقافة. ليست الهويات جوهرًا بل هي حركة من حركات التموضع ولذلك توجد دوما سياسات للهوية^٤. على مستوى الشعب الواحد هناك تفاوت في هندسات الهوية، وحتى التجارب الفردية والاستعدادات النفسية والثقافية، وكذلك على المستوى الكوني يوجد تعدّد في تشكّلات الهوية، وفقا لتعدّد تجارب الدّوات وتبعًا لاختلاف الموروث التاريخي والثقافي للشعوب.

كان الكاتب اللبناني أمين معلوف كثيرًا ما يُسأل عن هويته، هو الذي عاش سبعة وعشرين سنة في لبنان، وأزيد من عشرين عاما في فرنسا، فكان يجيبُ قائلا: "إذا أنا نصف لبناني ونصف فرنسي؟ أبدا، فالهوية لا تتجزأ أبدا، ولا تتوزّع أنصافا أو أثلاثا أو مناطق منفصلة. أنا لا أمتلك هويّات عدّة، بل هويّة واحدة مكوّنة من كلّ العناصر التي شكّلتها وفق "معايرة" خاصّة تختلفُ تماما بين رجل وآخر"^٥. من هذا المنظور فالهوية هي تركيبة هجينة من ثقافات متعدّدة، وفضاءات شتّى، تلثم وفق منطق تفاوضي.

من ناحية أخرى، ومن منظور مغاير، فإنّ "للّهوية علاقة بالتطابق مع الذات عند شخص ما، أو جماعة اجتماعية ما، في جميع الأزمنة والأحوال؛ فهي تتعلّق بكون شخص ما، أو كون جماعة ما، قادرا أو قادرة على الاستمرار في أن تكون ذاتها أو شيئا آخر(.....). ويتركّز سؤال الهوية على تأكيد مبادئ الوحدة، في مقابل التعدّد والكثرة والاستمرار والتغير والتحوّل"^٦. يفترض هذا التعريف للهوية أنّ هذه الأخيرة مقولة فلسفية منجزة ومتحقّقة في الذات بالإضافة إلى كونها لاثاريخية؛ إنها متشكّلة بطريقة قبلية، وهي ثابتة تعلو على كلّ المتغيّرات. إنها جوهرٌ متكلّس. يحيلنا هذا الإدراك الجوهراني للهوية إلى الفلسفات الاستشراقية ذات الفكر العنصري، التي تنسبُ إلى الذات الغربية كل صفات الجدارة الإنسانية والفضائل البشرية كالذكاء والنباهة والنبيل والتحضّر، كما تنسبُ كل ما يقابل ذلك من صفات سلبية، كالغباء والهمجية والبربرية والتخلف لغير الأوروبيين. ينطلق الفكر الاستشراقي من إدراك مانوي لمقولة الهوية، إنه يتمثلها ويمثّلها باعتبارها تركيبة مينايفيزيقية جوهرائية، لاثاريخية، وباعتبارها النقيض المطلق للذات غير الغربية.

في بعد آخر من أبعاد الهوية ينصبّ السؤال حول هذه المقولة بطرق محدّدة في "تخيل جماعات اجتماعية، وتأسيسها والانتماء الجماعي لها"^٧. إنها مقابل الهوية الدّائبة. يمكن القول أنّ مبادئ الوحدة والاستمرارية قد وُضعت في الصّدارة، وعمل منطق الهوية

لصالح الكمال والتماسك في ضوء العلاقة بما صار يُعرفُ على أنه الذات الجمعية. لقد تمَّ تحيّل الجماعة باعتبارها كيانا منسجما ومتجانسا وأمة ذات جوهر مشترك، أنكر تعقيدها الداخلي وتشعبها إذ كانت الصور الغالبة تنتمي إلى قومية وجسد واحد ودم مشترك ووطن للجميع^٨ جريا وراء مقولة النقاء العرقي. إنها الهوية القومية التي تشكلت من أجل المحافظة على وحدة الجماعة الإثنية التي تعيش في كنف نظام ثقافي متجانس.

يجب الإقرار مبدئياً أن الهوية-ببُعديها الفردي والجماعي-تركيبة هجينة بين عناصر ثابتة تتمتع بسرمدية نسبية وعناصر متغيرة وذات طبيعة تاريخية. وإنّ العناصر الثابتة والقابلة للتعميم على مستوى الجماعة الواحدة هي التي تصنع السمات المشتركة لجماعة إثنية معينة، بحيث يمكن ملاحظة نوع من التجانس بين أفراد المجتمع الواحد في كنف ثقافة واحدة. أما السمات المتغيرة للهوية فهي خاضعة لمبدأ النسبية، بحيث أنّها تتحقق بدرجات متفاوتة في الأفراد وفقا لعوامل نفسية وتربوية وأسرية معقدة. فإذا قلنا مثلا أنّ الجزائريين يتميزون بعصبية المزاج وحدّة الطبع، فإنّ هذه السمة ذات العلاقة بسياسة القهر الجماعي الذي تعرّض له الشعب الجزائري طيلة أزيد من قرن، تتحقق بدرجات متفاوتة لدى الأفراد، وربما تجد طريقها إلى الزوال في ظلّ ظروف اجتماعية مغايرة لعلاقة السيد بالعبد، وفي ظل مجتمع خال من علاقات القوة والهيمنة.

وإذا قلنا إنّ الشعب الجزائري يتميز بحسّ ديني ومرجعية أخلاقية شديدة الترسخ، فإنّنا نشير إلى سمة ثابتة، وموروثة عن الأسلاف، ويمكن ملاحظتها حتّى وإن تحوّل هذا المجتمع إلى العلمانية، في ظلّ نظام سياسي معيّن. وهي السمة التي نلمس مفاعيلها-وإن بدرجات متفاوتة-في الأغلبية الساحقة للمجتمع الجزائري، بغضّ النظر عن التدين الظاهر من عدمه. فالعلمانيون والمتدينون مثلا يستوون في تقديس شعيرة الصيام، والاحتفاء بالأعياد الدينية. وهم يستوون في ردود الفعل من حيث العنف إذا ما هوجموا في انتمائهم الديني، سواء من داخل الجماعة أو من خارجها. وبهذا تُفسّر الثورات التي تحصل ضدّ كلّ أشكال الاستعمار؛ إنّها ثورات بدافع حماية الهوية، التي تتعرّض للتدمير من قبل الاستعمار. إن مساعي إسرائيل لتغيير أسماء القرى والمدن الفلسطينية، وإزالة كلّ معالم الوجود العربي الذي يُحرّز حولة تاريخية عربية إسلامية، يُعتبر تشويها للهوية جماعة ثقافية معادية. وقد كان شعور هذه الجماعة بما يهددها من محو للوجود، وكان ردّ فعلها مقاومة محمومة لا تتوقّف، رغم الحصار الدولي الزهيب، من القريب والبعيد.

٢. الهوية القومية:

في مقابل الهوية الذاتية يمكن الحديث عن هوية جماعية أو هوية قومية. ويمكن-تبعا لذلك-رصد منهجين للتفكير في هذه المشكلة الفلسفية. فالمفهوم الميتافيزيقي للهوية يتحدّد انطلاقا من إدراك جوهري للسمات الشخصية والجماعية للفرد. الهوية هي تركيب نفسي-عقلي ثابت معزول عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والفكرية التي تحيط بالفرد والجماعة. يعالج هذا المنظور التفسيري للهوية مستقبل الذات بمعزل عن وضعها المادي والروحي الموسوم بالتحوّل والتطور الدائنين. وعلى النقيض من ذلك يمكن معاينة منظور سوسيولوجي للهوية، يحتفي بالمسيرة الجدلية للذات المفكّرة والفاعلة في واقعها والمنفعلة به. ومن هنا، فإنه يتعدّد استجداء هوية جوهريّة متعالية على التاريخ، وثابتة. إنّها تركيبة من السمات والخصائص السلوكية والفكرية غير المنجزة، ولا هي مكتملة. إنّها موسومة بالنقصان الذي يعترّيها ويكفيها وفقا لمعطيات الواقع المعاش والتحوّل باستمرار، في الزمان والمكان. إنّ "هوية الذات أو

الآخر هي البعيدة عن أن تكون شيئاً ساكناً، هي سيرورة تاريخية، أو اجتماعية وسياسية عالية الاشتغال، تجري على هيئة نزاع يتضمن الأفراد والمؤسسات في كل المجتمعات"^٩. النزاع بين العناصر الثابتة والأخرى المتغيرة، التي تطفو على السطح؛ إنه الصراع بين الثابت والمتغير، بين الطارئ والعارض والجوهري؛ وهو صراع موسوم بالأبدية، بين أصالة أصولية وحادثة وافدة. ومن هذا المنظور، فإن الذات تخضع لجدلية الموت والحياة، والغياب والحضور، بين الماضي والحاضر، إنها اليوم ما ليست بالأمس، وهي ما لن تكونه بالمطلق غداً. غير أن هذه الجدلية لا تصل إلى ما هو أصيل في الهوية الذاتية. إنها عناصر متشكلة في الطبقات التحتية للعوي، وهي التي تصلي بالأسلاف. من أجل ذلك يبقى المغترب، متواشجاً مع ثقافة الأسلاف مهما كان انغماسه في المجتمع الجديد، ورغم تماهيه مع ثقافته. ندرس في هذا السياق الهوية القومية على المستوى النظري، وفي مرحلة لاحقة نحاول أن نتبين تجليات هذه المفاهيم النظرية في البنية السردية لرواية "أشباح الجحيم" لياسمينه خضرا.

من المنظور السوسولوجي التاريخي تعني الهوية القومية وفي أحسن الحالات، طرق تفكير وشعور وأنماط سلوك متماثلة ومهيمنة نسبياً، بحيث تبدو طافية على السطح وقابلة للاختبار والمعاينة والتأويل والتفسير. كما أنها تتغير مع حركة التاريخ وتحولاته الجذرية^{١٠}. ولذلك فإننا نستطيع أن نحدد الهوية القومية لأية جماعة إثنية من خلال أنماط سلوكها بين عناصرها الداخلية ومع خارجها، كما من خلال طقوسها الدينية والاجتماعية.

الهوية القومية حتى وإن كانت متخيلة، كما يجادل بينيديكت أندرسون، فهي تجاري حركة التاريخ في تحولاته الحتمية. إنها مقولة نسبية يحققها شعب ما، من خلال تفاعله مع التاريخ. إنها ليست مورثة عن جوهر ميتافيزيقي متأصل، بل هي نتيجة استجابات كابدها من خلال التثاثة الاجتماعية، وليست ردًا فطريًا أو غريزيًا. إن الاحتكاك الثقافي بكل أشكاله ومحاذيره، والحروب والهجرات، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية، إن كل ذلك يلعب دوراً حاسماً في تشكيل الخصوصيات النفسية والانثروبولوجية للشعوب، وطرائق التفكير السياسي، والعلاقة مع الآخرين. وإن كل ذلك هو ما يُصطلح على تسميته بـ "الهوية الجماعية" أو القومية. إننا ننسب انبثاق هوية فردية أو جماعية إلى تلك المتغيرات باعتبارها عوامل أساسية، بينما تفضي الثوابت التي تُنسب إلى الفهم التاريخي، على غرار العوامل الجغرافية والغرائزية والطبيعة الإنسانية، والعرقية، إلى إدراك متصلب وعقائدي وساكن للذات القومية.

نحدد الهوية القومية سوسولوجياً على أنها "مجموعة من السمات العامة التي تميز شعباً أو أمة متأصلة في التركيب النفسي-العقلي ذاته منذ أزمان بعيدة ومعمنة في القدم. ولذلك، قد يقع انزياح في التأويل الثقافي من قبل بعض الانثروبولوجيين بحيث تبدو السمات السلوكية وكأنها نابعة من التكوين الفطري للذات، وغير متأثرة بمحيطها الذي تخلقت في رحمه. إن هوية أمة هي "هوية تاريخية، والتاريخ هو الذي يشكلها. الهوية القومية تجد تفسيراً لها في الواقعة الموضوعية التالية، وهي انتقال تراث اجتماعي ثقافي معين إلى الأجيال الجديدة أو نشوء هذه الأخيرة في إطار خلفية اجتماعية ثقافية متماثلة"^{١١}. إن فهم العربي المسلم للشرف باعتباره قيمة أخلاقية علياً قد تشكل عبر الممارسة الاجتماعية لهذه القيمة، كما أن فهمه لقيمة الجمال على سبيل التمثيل قد اتخذت مدلولها وثقلها التداولي عبر التاريخ الفعلي للمجتمعات، والدليل على ذلك أن فهم المجتمعات العربية والغربية لمثل هذه القيم يختلف اختلافاً جذرياً تبعاً لاختلاف تواريخ تلك الشعوب وممارساتها لتلك القيم الأخلاقية والفلسفية. إن هذا التحليل لا ينفي وجود مرجعية ثقافية

تتمتع ببعض الثبوت والديمومة، ويمكن الاطمئنان إليها أثناء الدراسة الانثروبولوجية للمجتمعات. و"لا شك أن هناك هوية قومية يمكن الرجوع إليها والتحقق منها بشكل نسبي. ولكن الانحراف الميتافيزيقي يقع عندما يتحول الحديث إلى تحديد خصائصها وكأَنَّها سمات أنطولوجية أو صلبة متأصلة فيها"^{١٢}. يمكن لهذا الانزياح أن يحول مقولة الهوية إلى مفهوم مجرد يصعب الاتفاق حوله أو الإمساك به، ثم يتحول إلى مبرر لاحتقار الأقليات العرقية باعتبارها ذات هوية هجينة أو معيبة. إن المعرفة العلمية من أجل أن تتمتع بالموضوعية، تقتضي البحث عن الأنماط والقوانين التي تضبط سلوك البشر، وتُحقق التحول الخارجي، وليس البحث عن جواهر متخيلة وموروثة عن الأسلاف، والادعاء بأنها تتمتع بمزية النقاء الثقافي والعرقى، واتخاذ ذلك مطية للتعالي على الآخرين.

تصنع الأمم هوياتها ولا تزال، من خلال التعليم ومؤسسات السلطة السياسية والثقافية والاجتماعية، والعادات والتقاليد والشعائر الدينية، ومع ذلك لا يحق لنا إنكار وجود "جوانب عميقة دائمة وثابتة في الهوية القومية، وبأن جيشان السطح يجب ألا يعمينا عن سكون الأعماق"^{١٣}. من هنا، فإن الإقرار بثنائية التكوين للهوية هو أمر تقتضيه الدراسة العلمية والموضوعية. توجد جوانب عارضة، وأخرى مترسبة في القاع الأسفل من البنية الشعورية للذات الجمعية. وتكون الجوانب العارضة أكثر عرضة للتغيير وأسرع مقارنة بالجوانب العميقة. ولذلك، فإن الدارسين يعتمدون على ما هو ثابت وسكوني من أجل تحديد هوية مجموعة بشرية معينة، استنادا إلى السمات النفسية والفكرية والعاطفية التي تتقاسمها الجماعة. لقد انبثقت تلك السمات عن تقاليد قوية تفرض نفسها، وهي من صنع تاريخ من الممارسة طويل، إنها نتيجة ذلك صلبة، ذات وجود عنيد، تقاوم التغيير، وتوجه تفاعلنا مع التاريخ، هذا التاريخ المحيط بالتقاليد يجب أن يكون استاتيّا، لكي يسهل التفاعل بينه وبينها. إن "كل تقليد حقيقي هو حياة معاصرة وذلك لأنه يمتد إلى الحاضر، ويُفترض به تغليفه، ولكن هناك مراحل تاريخية يعجز فيها التقليد عن الاستمرار بهذا الشكل، يعجز فيها التاريخ أن يتميز بالمعاصرة، وذلك لأن القوى الجديدة التي يكون التاريخ قد أفرزها وفجرها، تضيق به وتمزقه"^{١٤}. بهذا المنطق الجدلي تتغير القيم والأعراف بفعل الاحتكاك الثقافي مع الآخر. لا يمكن للثقافات الوطنية أن تكون حجارة مانعة لتدفق المياه. إن الأسلوب المناسب لتجديد الهوية وإن جزئيا لا يصحّ إلا من خلال تطعيمها بعناصر جديدة، قابلة للممارسة والتجريب. إن الهويات تختنق في الفضاء المغلق، ولا شيء يقتلها كالعزلة. وإن الاحتكاك الثقافي بين المجتمعات يفضي إلى نسبية القيم وقبول مبدأ الاختلاف الثقافي. غير أن كلود ليفي سترأوس له رأي مخالف. إنه يرى أن "من الأفضل أن يبقى كلٌّ في موطنه، وأن نجهل الآخرين بدل أن نعرفهم أكثر مما ينبغي. من الأفضل ردّ الأجانب إلى خارج حدودنا بدلا من رؤيتهم يجتاحوننا ويحرموننا من هويتنا الثقافية"^{١٥}. كان ليفي سترأوس يسعى من خلال مقولته هذه إلى معارضة مسعى الاتجاه الإنساني الذي يدعو إلى انصهار كل المجتمعات في تشكيل ثقافي واحد بحكم انتمائهم إلى أصل بشري واحد، كما أنه يدعو إلى انضواء كل الأمم تحت لواء المسيحية التي يعتبرونها أكبر تظاهرة ثقافية في التاريخ. وكان بوتالد وباريس وغوينو يذهبون في هذا الاتجاه الكوني والشمولي.

في مطلع القرن التاسع عشر، ومع بزوغ فلسفة هيغل، ذات التمرکز حول الذات الأوروبية، والتي تؤمن بمقولة النقاء العرقي ساد اعتقاد لدى كبار مفكري العصر أن ألمانيا لا يمكنها أن تتحول إلى دولة صناعية لأنّ الروح الألماني (وهي إشارة إلى الهوية) يعبر عن ذاته في الفلسفة والأدب والفن، وليس في العلم والتقنية والصناعة، ولكن بعد بضعة عقود من السنين أصبحت ألمانيا في طليعة الدول الأوروبية الصناعية، دون أن تفقد كعبها العالي في مجال الأدب والفكر والفن. لقد أدلّت مادام دو ستايل بموقف من العصر

الألماني في مطلع القرن التاسع عشر، وهو يتقاطع جزئياً مع موقف هيجل. ففي رأيها-هي التي كتبت الكثير عن الأمة الألمانية-"أن الألمان مخلصون، طيبون بسطاء، ولكنهم كثيرون الأحلام والكآبة؛ تسودهم المشاعر، والموسيقى والفكر المجرد"^{١٦}. الكآبة وتوهج المشاعر والموسيقى والفكر المجرد هي أهم سمات الهوية الألمانية الميالة إلى الفكر والتفلسف. ولقد تجلّت عظمتها في الفكر وبنّت مجدها الحضاري من خلال المدارس الفلسفية الكبرى التي هيمنت بها على كل أوروبا وأمريكا في القرن العشرين. غير أن هذه السمات التي تبدو ثابتة، لا تتناقض مع الروح العلمية والتقنية، بل إنها إحدى أهم نتائجها، وثمره من ثمارها. وما نراه اليوم هو تفوق الحضارة الأمريكية على كل أوروبا. لقد استفادت أمريكا من العبقرية الألمانية في كل مجالات المعرفة وبذلك تجاوزتها وتميّزت عنها. إن المتأمل في الهوية الأمريكية اليوم يدرك مدى التعقيد الذي يشوبها. وهو الأمر الذي يقوّض كل النظريات التي تأسّست في الفلسفات العربية خلال القرون الماضية حول الهوية القومية وعلاقتها بالثقافة. إنّنا نعلم يقيناً أن الأمة الأمريكية هي تركيبة بشرية هجينة، وقد تشكلت خلال قرون من عشرات الهجرات الجماعية من كل زوايا اليابسة، فكانت ملتقى بشرياً لا نظير له. وقد تركت كل الجماعات المهاجرة بصماتها الثقافية على الأرض الأمريكية، التي تحولت إلى فضاء كوني. وإزاء هذه الحقيقة تضعف كل المواقف الداعية إلى الفكر القومي الشوفيني.

٣. العماء الثقافي:

إن رواية "أشباح الجحيم" للروائي الجزائري ياسمينه خضرا، تأخذ بأيدينا إلى عمق غابة السرد، لنعيش في كنفها مأساة عربية معاصرة، شكّلت الخاتمة الدرامية للقرن العشرين. نطلّ على مأساة العراق الذي كان يشكل العمق التاريخي للحضارة العربية الإسلامية من خلال قرية "كفر كرم" العراقية، تلك القرية التي بدت منكفئة على نفسها، مبعدة عن الحضارة والتمدّن، تلوك أوجاع الوطن بصمت، إلى أن أصيبت في ابنها سليمان، ذلك الشاب المعتوه الذي قتله الأمريكيون في حاجر أمّني دون تثبّت ولا تروّ. هذا الحادث المتكرر أثناء الحروب هزّ القرية هزاً عنيفاً، وفتح لها باباً مشرعاً نحو الجحيم الذي تعيشه العراق أثناء الاحتلال الأمريكي. ومن هنا، ندرك شعريّة عنوان الرواية، الذي يُلْمَعُ إلى الجحيم الذي آلت إليه العراق بسبب الغزو الأمريكي.

هل تمكّن ياسمينه خضرا من سرد مأساة العراق والعرب عموماً، من خلال العمل التخيلي، هل تمكّن من تفجير الطاقات الذهنية الكامنة في الذات العربية المغيّبة عن واقعها، بطريقة جمالية، هل حالفه النجاح في تقويض بلاغة الخطاب الكولونيالي من خلال السرد، كل ذلك نأمل الكشف عنه من خلال هذا الجزء التطبيقي للمقال وتشريح النص الروائي الذي بين أيدينا. وسنحاول رصد الأنساق الثقافية التي تتوارى خلف جماليات العمل التخيلي، وأدبيّة اللغة التي ترتقي في معظم مفاصلها إلى ذروة الشعريّة.

ما الذي دفع أمريكا إلى الخروج عن حدودها الإقليمية والدفع بجيوشها إلى أرض غريبة، لمقاتلة شعب تجهل عنه كلّ شيء؟ هل هي لغة المصالح، أم الرغبة المحمومة في نشر قيمها الحضارية وتحضير البرابرة من خلال تخليصهم من كل أشكال الشر النابع منهم والمتّجه إليهم؟ أم أنّها المشاعر الإنسانية الحيّاشة التي تؤرّق الضمير الأمريكي الحساس من أجل نصرة المستضعفين الذين وقعوا تحت أنياب الدكتاتور العراقي الفظ؟ لعل كل ذلك مجتمعاً يتخلل الخطاب الأمريكي التسويغي للاستعمار والهيمنة. "لقد أولعت أمريكا بالاعتقاد بأنّ كلّ ما ترومه هي، هو بالضبط ما يرومه الجنس البشري برمته"^{١٧}، ولذلك فإنّ عبء تصويب أخطاء السياسات الدوليّة يقع على عاتقها. لقد انتقلت الخيرية من أوروبا إلى أمريكا، التي عليها أن تمتلك العالم، وتضعه تحت أقدامها. قبل الحربين اللتين سمّيتا

عالميتين، وما هما إلاّ أوروبيتان، كانت أوروبا تسعى إلى أوربة الكرة الأرضية، في إطار مشروع تنويري، إنساني؛ وبعد الحربين، اللتين اعتبرهما علامة فشل ذلك المشروع التنويري، تقدّمت أمريكا -بعد إزاحة القارّة العجوز عن مواقعها- بمشروع احتلال العالم تحت غطاء العولمة؛ وهي لا تعني أكثر من الأمركة. إنها تسعى إلى عولمة قيم الحضارة الأمريكية واللغة الأمريكية، بحيث لا يحتاج الأمريكي إلى مترجم حينما وُجد.

تتركز أحداث هذه الرواية ذات النفس الملحمي في قرية "كفر كرم". وهي حيّز مكاني يُكتفُ اللحمة الإثنية التي ينتفّسها العراقيون رغم المحن التي تلاحقهم طيلة تاريخهم. ولعلّ تلك المحن هي التي تعزّز وحدة أفراد الجماعة وشعورهم أنّ الخلاص لن يكون من خلال توزّعهم. يصف لنا السارد الوضع الاجتماعي لتلك القرية البائسة في مقطع بليغ. "تربط علاقة قرابة دمويّة أغلب سكان كفر كرم؛ أمّا الباقي فإنّه موجود هنا منذ أجيال عديدة. صحيح أنّ لنا خصوماتنا الصّغيرة، ولكنّها لا تتدهور إلى حدّ الصّدام العنيف. حينما تسوء الأحوال يتدخلُ الشيوخ لتهدئة الأعصاب"^{١٨}. يعيش سكّان القرية على القيم الموروثة عن الأسلاف، ولا يتجرّأون على خرقها حتّى وإن دخلوا المدارس والجامعات. إن الذي يمسك العلاقات الاجتماعية بين سكان تلك القرية هي القرابة الدّمويّة التي تحظى بقداسة ذات طبيعة دينيّة وأخلاقيّة. والذين لا يربطهم الدّم بالجماعة اندمجوا معها وتماهوا مع قيمها، فأصبحوا جزءا عضويّا من الكل. ويتمتّع الشيوخ بمكانة جليّة لا توهب إلاّ للحكماء من الجماعة، والعقلاء من ذوي الأسر العريقة. هؤلاء هم ضمير القرية والذين يُلجأ إليهم لحلّ الأزمات وتجاوز الخلافات.

تتمتّع كفر كرم ببنية ثقافيّة شديدة التماسك، وبنية اجتماعيّة صلبة وعصيّة على الانكسار. وأشدّ ما تكون هذه البنية وضوحا عند الأزمات. ولما كان العراق يعيش حربا قدرة، بفعل الاحتلال الأمريكي، فإنّ هذه البنية عرفت بعض التصدّع. اقتحم العساكر الأمريكيون قرية كفر كرم لملاحقة المقاومة العراقيّة. وجاسوا خلال الديار، واغتصبوا النساء وأهانوا الشيوخ. وكان ذلك تعدّيّا على شرف القرية ومقدّساتها. لقد أبان الأمريكيون عن جهل مطبق لمقدّسات الأهالي، وكشفوا عن احتقار لإنسانيّة هؤلاء الأبرياء الذين كانوا بعيدين نسبيا عن ساحة المعركة. وقد أثار هذا السلوك العدواني حفيظة شباب القرية، فاندفعوا إلى الانتقام من العدو الأكبر وحلفائه من النظام الجديد، الذي انحاز للمستعمر، وقبّل بدور المخبر والعميل، من أجل أن يرث عنه السلطة لاحقا.

يصف لنا السارد مشهدا دراميا يستجلي عمق المأساة التي كابدها كفر كرم. "أخرج العساكر الشيخ. لم أره أبدا في تلك الهيئة، بسرّوالة الدّاخلي الرث، الذي يصلّ إلى ركبته، وتريكو ممزّق في الأطراف. تجاوز شقاؤه كل الحدود. صورة البؤس في أوجها، الإهانة في فظاظتها المطلقة.... كان يتوسّل اتركوني أرثدي ثيابي، أولادي هنا. هذا ليس من شيم الرجال"^{١٩}. يمثّل الآباء في مخيلة الأبناء التحسيد المطلق لكل معاني الرجولة والشرف والفحولة. إن نظرة الأبناء للآباء هي من القداسة والطهرية بحيث لا يجوز المساس بها مطلقا. ويُعتبر الاعتداء على صورة الأب انتهاكا لنظام المجتمع الثقافي وتفكيكا لقيمه وتشكيكا في قدسيّته. والذي حصل للراوي هو أن والده الطاعن في السنّ أهدى أمامه، وكُشِفَتْ عورته، أمام كل أفراد العائلة. ولا يمكن للأمريكي الذي يجهل مجتمعه قيم الأسرة العربية الإسلاميّة، ولا يفهم معنى الحياء والحشمة والعقّة. إنها قيم غريبة عن مجتمعه، ولا يمكنه أن يحترمها إزاء المصالح الكولونياليّة لبلده الذي دفع به إلى حرب استعماريّة ظالمة، ولا تحظى بأيّ تسويغ أخلاقي. إنه العماء الثقافي الذي ينمّ عن جهل بثقافة الآخر،

وتجاهل لجرد وجودها. ومن أبرز علامات ذلك "أن تختلط الأحكام الثقافية، ليس لدى المؤسسة الثقافية الرسمية بل لدى ممثلي التّحديد والتّحديث، حتّى لتأتي تطّعاتهم التّجديدية على صورة مشوّهة ومحدودة، ممّا يعني أنّ النّسق يصل في هيمنته حدّا لا يتحكّم فيه بالخطاب الرّسمي فحسب، بل بالخطاب المعارض أيضا"^{٢٠}. يحاول الأمريكي أن يُخضع مجتمعا أجنبيا بمعايير إيديولوجيا الذات. ومن البديهي أن المجتمع العراقي لا يتقاسم مع أمريكا أيّ قيم، ولا تاريخ، ولا معتقد، ولا ثقافة. ومن الغريب أن يفكر الأمريكي بمخاطبة جماعة غريبة بلغته هو، وإذا لم يتمّ فهمه يسمه بالجهل ورفض الديمقراطية وسوء مكافأة السيّد الذي دفع دم أبنائه من أجل تحرير المعتّدين من جلاّديهم.

لقد أنْهَكَتْ صورة الأب المثاليّة لما كُشِفَتْ عورته، وبدا عاجزا عن الدفاع عن الذات وعن قيم القبيلة والمجتمع. الأمّ بدورها شعرت بإهانته في عمقها الثقافي، وانكشفت لديها صورة الزوج مهانا وذليلا، فراحت تداري عراه وتصرّفُ نظرة الابن المرتابة عنه "لتصدّ عريه عنا... كانت عينها تتوسّل إلينا... تتضرّع إلينا كي ندير أعيننا"^{٢١}. إنّها الذات المضطّهدة التي تتوسّل معذّبا، عندما تشعر بالخصاء المطلق، والاستلاب الذي لا شفاء منه. يستنجدُ ياسمينه حضرا باللغة الأكثر دراميّة والصور التمثيليّة الأكثر رجاءا للوعي وخضًا للروح من أجل تجسيد الجرح الذي يكابده المستعمر والألم الذي يتولّد عن تمزيق الحالة التي يتوشّح بها الآباء في أعين الأبناء في المجتمعات العربية والإسلاميّة التي تعرضت للاستعمار في عمقها الأكثر إيلاما. "رأيت فيما كان شرفُ العائلة يسقط أرضا، رأيتُ ما لا ينبغي أن أراه أبدا، ما لا يليقُ لابن بارّ محترم، لبديوي أصيل أن يراه أبدا. ذلك الشيء هو الرّخو، المقرف المهان، ذلك الإقليم الممنوع، المسكوت عنه، العار: قضيب أبي يتدحرجُ جانبا والخصيتان فوق ثقب مؤخّرتة"^{٢٢}. إنّها استعارة بليغة عن سقوط الشرف العربي، وعجز الأنظمة عن حماية كرامة الوطن، في عصر سقطت فيه كلّ الأقنعة وزال الطلاء الذي كان يداري قبح الأنظمة العربية وبربريّة الغرب المتوحّش، والتواطؤ اللاأخلاقي بين المركز والهامش من أجل سحق إرادة المقاومة. هو الوجه القبيح للامبراطوريّة في زمن توخّشها واستفحال تغوّلها على المستضعفين.

يحيلنا هذا المشهد الدرامي إلى مشهد مماثل، ويحمل نفس معاني السقوط الأخلاقي للمستعمر. في رواية "فضل الليل على النهار" لياسمينه حضرا- تلك الرواية الملحميّة التي تسرد صراع الهويّات في الجزائر الكولونياليّة- كان والد جوناك الذي دمره الاستعمار وأتلف كل ثروته، يتردّد على حانة للمعمرين. ولم يكن ابنه يعلم بذلك. وذات يوم، وبينما كان جوناك مارا بجانب الحانة، رأى "رجلا سمينا غاضبا يمسك متسوّلا من الرقبة وحزام السروال ويدحرجه على الرّصيف. سقط المسكين عند قدميّ في حالة سكر متقدّمة وهو يقف عند العتبة... لا تضع قدميك هنا مرة ثانية أيّها المقمّل". هذا ليس مكانا لأمثالك"^{٢٣}. كان الرجل الغاضب هو نادل المخمرة الفرنسي، ولم يكن المتسوّل غير والد جوناك الذي ألقت به همومه وعذاباته في هذا المكان، في منطقة يرتادها المعمرّون. فهي فضائهم المحرّم على الأصلايين، "المقمّلين" الذين يسمّون بحضورهم المجال الحيوي للفرنسيين.

هذا المشهد المهين الذي يعكس بربريّة المستعمر الفرنسي إزاء الأهالي -أصحاب الأرض الشرعيين- بدأ يوقظ وعي جوناك بالشقاء الذي يسبّبه الفرنسيون للجزائريين. لقد كان يشعر بعمقه الثقافي الذي جعله يتعاطف مع العربي الذي يجرحه صاحب الحانة على قارعة الطريق، دون أيّ اعتبار لآدميّة، وكرامته باعتباره ابنا شرعيا للجزائر، بينما الفرنسي محتلّ. "تعمل الهوية الكولونياليّة قبل

كلّ شيء عن طريق منطق مانوي قائم على الإقصاء والاستبعاد (.....). يجري استبعاد المستعمرين عن الفضاءات الأوروبية على الأصعدة الماديّة والإقليميّة، وليس فقط من حيث الحقوق والامتيازات، بل حتى على مستوى الفكر والقيم؛ يجري بناء الذات المستعمرة في خيال المركز باعتبارها آخر^{٢٤}. إنّ تواجد العربي في حانة يديرها فرنسيّون أمرٌ مرفوضٌ. ولذلك وقع طرده بطريقة مهينة عندما جاء ليزعج سكيّنة المعمرين. ووُصِفَ بأقبح النعوت. فهو المقمّل والقذر والمنحطّ ولا يحقّ له أن يجالس أسياده، حتّى وإن كانوا في إقليمه. إنّ العالم الذي يسوده النظام الاستعماري هو عالم مقسّم ومن نافل القول طبعاً أن نذكر أنّ هناك قرى للسكّان الأصليين وحارات للمعمّرين لا يجوز لغير الأوروبي اختراقها. "إنّ جماعة من البشر تعيش على بضعة هكتارات من الأرض ستقيم حدوداً بين أرضها ومحيطها المباشر، وبين ما هو خارج عن ذلك، وتُسمّى ما يقع عبر حدودها "أرض البرابرة". وبكلمات أخرى إنّ هذه الممارسة الكونيّة، أي تحديد مجال مألوف في ذهن المرء يُسمّى مجال "نا"، ومجال غير مألوف خارج مجال "نا" يسمّى مجال "هم" هي طريقة في خلق مجالات جغرافية يمكن أن تكون مطلقة الاعتباريّة^{٢٥}. تكمن بلاغة السرد في تصوير هذا العالم المتشظي والموزّع بين أسياد ومسودين. ففي مقابل البنايات الشاحخة والشوارع الأنيقة والحدائق المزهرة- حيث يقيم المعمرون-، نجد "جنان جنات"، وهي مكان تتزاحم فيها الأكواخ وتتجمّع القاذورات والروائح الكريهة، وفيها يعيش المقملون (كما يسميهم الفرنسيون)، يكابدون شقاءهم بصمت قاتل. إن وضعهم ذاك هو إدانة قويّة إلى الفكر الكولونيالي الذي يسمّم العلاقات الإنسانيّة حيثما يحلّ. إن الأرض التي تعبرها أنفاس الغرب الاستعماري تفقد زينتها وعذريّتها إلى الأبد.

نعود إلى صورة الأب الشقيّ وهو يُطرّد من الحانة لنرى حجم العذاب النفسي الذي كابده عندما ألفى ابنه جوناكس أمامه وهو في ذلك الوضع البائس والمهين: "عندما رفع وجهه باتجاهي تفتّت وجهه. إنه أبي. أبي الذي كان قادراً على رفع الصّخور وهزّ الجبال، وإركاع الشكوك وليّ رقبته القدر.... كان هنا، عند قدمي، على الرّصيف، غارقاً في أسمال ننتة، الوجه متورم، وزاويتا الشفتين تقطران ريقاً، وزرقة عينيه أكثر مأساة من الزرقة الجاثمة على وجهه.... حطام.... خرقة.... مأساة^{٢٦}. تستمدّ مأساة الجزائريين قناعتها من وحشيّة المعمر الذي يدوس على آخريّة الأهالي بنعالة. أدرك والد جوناكس عمق الجرح الذي يكابده، وهو في حالة سكر، عندما ألفى نفسه أمام ابنه. إن بقيّة الوعي الذي استعاده من سكره دمّر نفسيّته وهدّ قواه الجسديّة. لقد تحطّمت صورة الأب الأسطوريّة التي كانت قاهرة لفرقها وبؤسها. لقد كان الأب يمثّل إباء الجزائري البدوي، بعزة نفسه، وشجاعته وصلابة عوده، وتصميمه على مواجهة قدره وحيدا.

كان الأب يمثّل الجدار الذي تنعكس عليه صورة الوطن المقاوم، كان حمّالاً لقيم عشيرته وأسلافه، لقد كان هو الوطن والدّين، والعالم الذي يحيط بالأسرة ويجلب لها الرعاية والحماية. لقد تحطّم كل ذلك كلمح البصر في لحظة سكر، وغيبة وعي.

٤. الاختلاف الثقافي:

قد يكون من المفيد، في السياق الذي نحن بصددّه، التذكير بالظروف التي سبقت حملة نابليون بونابارت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر. لقد أفاد قائد الحملة من تجارب المستشرقين الذين سبقوه للشرق، وأمدّوه بنصائح متعلّقة بعبادات الشرقيين، ومقدّساتهم، وديانتهم، وإن احترام تلك النصائح والعمل بمقتضاها سيجعل من الحملة مشروعاً حضاريّاً ناجحاً للامبراطوريّة الفرنسيّة. لم يصطحب

نابليون معه جيشا من العساكر، بل اصطحب جيشا من العلماء والخبراء والجغرافيين والاثروبولوجيين، الذين جيء بهم من أجل تحديث مصر، وتحويلها إلى حاضرة للثقافة الفرنسيّة.

لقد تحاشى الفرنسيون الإساءة إلى معتقدات المحليين وأبدوا قدرا كبيرا من احترام ديانتهم وعاداتهم، لذلك لم يجدوا مقاومة لحضورهم، بل وجدوا قبولا وتعاوناً أفاد منه الطرفان.

غير أن الأمريكيين الذين جاءوا إلى العراق بدعوى تخليص العالم من شر الدكتاتورية، وتحويل الشرق الأوسط إلى واحة للديمقراطية وحقوق الإنسان، لم يحترموا المحليين، ولم يوقّوا بوعودهم، بل داسوا على كل المقدّسات ونهبوا ثروات البلاد، دون الحاجة إلى تبرير عدوانيتهم، أو مداراتها. بل إنهم أبدوا عماء ثقافيا استفزّوا به حفيظة العراقيين من البدو والمثقفين على حدّ سواء. وبذلك تحول هذا العداء من جانب الغزاة إلى وقود لثورة محمومة قادتها المقاومة الوطنية ضد الأمريكيين وحلفائهم من المحليين العملاء. لقد تفتّن العراقيون إلى نفاق الغرب، ولم يكن ذلك خافيا على أحد. ف"الغرب لا يحبّ إلّا نفسه. لا يفكر إلّا في نفسه، وإذا مدّ لنا يد المساعدة فلنكي يستخدمنا كقطع، لا غير. يتلاعب بنا، يؤلّب بعضنا ضدّ البعض، وعندما تنتهي اللعبة يرمينا في أدراجة السريّة وينسانا"^{٢٧}. لقد كان العراقيون على درجة كبيرة من الوعي بمفاعيل العقل الكولونيالي، وحيل الامبراطورية، ولم يصدّق معظمهم خطابا التبريري. لقد كان صدام وحشا، ولكنه وحش من صلبهم، من دمهم، وقد ساهموا جميعا بصناعته، من خلال تمجيده، وتدعيم عظمته الجنويّة^{٢٨}.

إنه عنيفٌ في حقّهم ولكنه يحترم مقدّساتهم ويمارس عاداتهم، لأنه يقتسم معهم الثقافة والهويّة، بل إنه يشعر بدفء الانتماء إلى الوطن الذي يحكمه. يمكن لأيّ شعب أن يتحمّل اضطهاد حاكمه في حالات معيّنة، كما يمكنه أن يحدّد أشكال المقاومة التي لا تتنافى ومصلحة الجماعة والأرض التي تقيم فيها. بينما لا يراعي المستعمر مثل هذه المعطيات إذا كان مستعمره اجنبيا.

في حوار بين الدكتور جلال الراوي، اللذين يقتسمان غرفة في فندق بلبان، يجادل هذا الأخير قائلا: "لم يعد التعايش ممكنا. إنهم لا يحبّوننا، ونحن لم نعد نحتل عجرتهم. على كل واحد منّا أن يعيش في جهته، مديرا ظهره كليّة للآخر. ولكن قبل أن ننشئ جدارا، علينا أن نكبدهم خسارة فادحة انتقاما من الشرّ الذي سلّطوه علينا"^{٢٩}. إن الخلافات التي طفّت على السطح بين الامبراطورية الأمريكيّة والعراقيين أضحت غير قابلة للتفاوض. وسيقود المستعمرون حرب الهويّة بلا هوادة ضدّ هؤلاء الذين أساءوا إلى عمقهم الحضاري واعتدوا على حميتهم وتجاهلوا مقدّساتهم من أجل إنقاذ مصالحهم القوميّة. يقول الراوي في مناجاة خفيّة: "كنا فقراء متواضعين، ولكننا كنا هائنين إلى غاية اليوم الذي أغتصبت فيه ألفتنا، ونُشِئت فيه مقدّساتنا، وجُرحَتْ كرامتنا في الوحل والدّم"^{٣٠}. إنّ الوعي بالاضطهاد والقدرة على ممارسة المقاومة ضدّ كل أشكال الشرّ المسلط على العرب من قبل الغرب، أضحي يشكل جوهر البنية السردية في روايات ياسمينه خضرا. وكانت لغة الهويّة والاختلاف، هي نسيج المخيال الرّمزي لهذا الروائي الفرونكوفوني، الذي لم تصرفه علاقته بالميتروبول عن إعادة كتابة تاريخ الاستعمار الملوّث بدماء الشعوب المسحوقة. لقد كان ياسمينه خضرا مفككا للخطاب الكولونيالي بأدوات الكولونيالية وبمناهج الغرب الأكثر حداثة وعمقا.

كان الراوي الذي أهين أهله أمام عينيه من قِبَلِ قُوّات التحالف، قد عزم على الالتحاق ببغداد والانضمام إلى المقاومة العراقية. وفي الطريق إلى العاصمة، وبينما كان برفقة سائق شاحنة، قصّ عليه هذا الأخير تجربته مع الأمريكيين بصفته مترجماً. لقد أمضى معهم ثمانية أشهر، ثم قدّم استقالته احتجاجاً على عدائيتهم المفرطة تجاه العراقيين الأبرياء. كان يحدث صاحبه قائلاً: "ثمانية أشهر وأنا أحمّلُ عجرتهم واستهزاءهم المختلّ. البويز. ما هم إلّا إشهار هولودي. إنهم أشبه بقطيع ذئاب جائعة تُطلّق على زريبة غنم. رأيتم يطلقون النار على الأطفال والشيوخ كما لو أنهم يتدربون على الرمي على أهداف كارتونية"^{٣١}. يحيلنا هذا المشهد إلى الماضي القريب لما احتلّت القوّات الإمبريالية القارة الجديدة. وأثناء اكتشافهم للمكان، كانوا كلما أرادوا تجريب حدة سيوفهم وصلاحيّتها للقتال، جرّبوها على السكّان المحليين والعزل من كل أدوات القتال. وبذلك كانوا يبيدون آلاف الأرواح من أجل التأكد من صلاحية سيوفهم. تكشف هذه الوقائع المتطابقة النقاب عن الطبيعة البربرية التي تسكن الذات الغربية في عمقها الثقافي والنفسي. إن الغربيين، ما أن يجابهوا آخريهم حتّى تنفجر فيهم شهوة القتل، فكل الذين يختلفون عنهم هم أعداء بالضرورة، ولا بدّ من إلغاء وجودهم. إنهم شرٌّ محتملٌ.

فالذات الغربية بحاجة إلى العنف، وإلى مجاهدة آخرها لتحسّ بقوّتها وتحافظ عليها، لتعيد صناعة نفسها باستمرار. "ليست حالة الحرب المعممة التي تكون على الدوام متلازمة مع أشكال التمثيل الكولونيالي مصادفة، أو حتّى غير مرغوبة. فالعنف هو الأساس الضّروري للكولونيالية نفسها"^{٣٢}. إن العساكر الأمريكيين يبالغون في استعمال العنف لعلمهم أنّهم حالة استعمارية غير مرغوب في وجودها، وأنّ الأصلايين يسعون لاقتلاعهم من أرضهم أو إبادتهم. فحروبهم استباقية. يتخيّل الأمريكي أن آخره يناصبه العداء ويكرهه، ولكنه لا يكلف نفسه البحث عن أسباب الكراهية ومواجهتها لتفسير علاقته بالآخرين وبالعالم. فهو وحيد المنطق، ومنطقه من صنع قوّته المادية والتكنولوجية. إن تفوقه الحضاري يخوّله الهيمنة على الذين هم أقلّ تطوراً. لا تستطيع إراقة قطرة دم واحدة من الدّم الأمريكي دون إراقة دم العالم كلّّه. إن دم الأمريكي أشبه بطوفان الأمازون، مؤلّف من مئات التيارات النبيلة المترافدة في مجرى واحد. إن أمريكا هي العالم كلّّه^{٣٣}. ويصورها العالم الروائي لياسمينه خضرا على أنّها إمبراطورية كونية تمتلك الحق في قيادة العالم، وصناعة النظام العالمي، بل وصناعة رؤساء الدول على مزاجها. وإنّ ثقافتها لا تغيب عنها الشمس، وقيمها أضحت ديانة عالمية.

يجادل دعاة العولمة من الغربيين، أن البشرية كلّها يجب أن تنضوي تحت مظلة الثقافة الغربية وقيم الرّجل الأبيض، غير أنّهم يستحدثون آليات طرد واستبعاد لكلّ ما هو أجنبي، فالدم الغربي الموصول بالعرق الهندو-أوروبي يتسمّم بمجرد أن تشوبه قطرة دم غير أوروبي. إن المستعمرين إذا هم أبدوا الامتثال للنظام الكولونيالي، وتمأهوا مع قيم المنتصر، سوف يُنظر إليهم نظرة مريبة، ومتشكّكة، تدين الذات الأجنبية الموسومة بالضعف والبدونية. ولكونها كذلك فهي لن تُقبل في النظام العالمي الذي يُهيأ له من قبل التحالف الدولي.

يقول سائق الشاحنة المتوجّه إلى بغداد لمرافقه، بعد أن استأنس به: "كنت مترجماً لدى فيلق الجيش النظامي. إنّ عساكره خرفاناً مقارنة بالمارينز. ولقد أخذتُ حقّي كاملاً. زيادة على أنّهم كانوا يسخرون منّي باستمرار ويعاملونني كالخزء. بالنسبة إليهم لم أكن إلّا خائناً لأمتي"^{٣٤}. لقد انحاز هذا السائق للأمريكيين باعتباره يتقن لغتهم، ولعلّه مهووس بقيمتهم وأنماط عيشهم. وقد دفعه

ذلك إلى التعاون معهم لإنجاح مهمتهم الكولونيالية المتمثلة في صناعة شرق أوسط جديد، موال لأمريكا، ومع ذلك فإن الأمريكيين كانوا يحتقرونه. إنه مجرد خائن لأُمته ومنسلخ عن ثقافة الأسلاف. الغرب غربٌ والشرق شرقٌ ولن يلتقيا أبدا. إنَّ الفكر ما بعد الحداثي يرفض تحويل الآخر إلى المثل.

يرى فيبر أن الأمل والتوقعات التي كانت معقودة على مفكري حركة التنوير تحوّلت -بفعل الظاهرة الاستعمارية- إلى مرارة ووهم ساخر. لقد سعى دعاة التنوير والتحضير "إلى صلة ضرورية قوية بين صعود العلم والعقلانية وحرية الإنسان الشاملة. ولكن حين زالت الأقنعة وتبدّت الحقيقة تبين أن تراث التنوير إنما قام على انتصار العقلانية الأداتية ذات الأغراض المحددة"³⁵ ومن أهمها السيطرة على الطبيعة وسكان الطبيعة من غير الأوروبيين، وهذا هو الذي حصل ولا يزال يحصل، ولن يكفّ عن الحصول في المنظور القريب. قد يغيّر الغرب من استراتيجيات الهيمنة والاستعباد، كما قد يغيّر المهيمن عليهم من استراتيجيات المقاومة، غير أنّ حالة الصراع الثقافي ليست إلى نهاية.

انتبه السائق إلى هذه الحقيقة بعد بضعة أشهر من التعاون، ولذلك قرّر العودة إلى موئله العاطفي والثقافي. "قابلت النقيب لأخبره بأنني قرّرت الرجوع إلى داري. طلب منّي إن كان هناك ما يزعجني. أجبت: كلّ شيء. لم أكن أريد التشبّه بأولئك الكوبوي المدمنين البلاد حتى وأنا منهزم، فقيمتي أكبر"³⁶. لقد أحسّ هذا العراقي بمرارة العنصرية وهو في بلده، وإن كونه منهزما لم يمنعه من استرجاع الثقة في ثقافة قومه، والاعتزاز بهويته وإنسانيته التي حرّمه منها المستعمر. تقتضي العودة إلى الهوية الجماعية والفردية إثبات الاختلاف عن الآخر. أنّ تكون لك هوية وانتماء ثقافي لا يخرج عن كونك مفارقا لغيرك، ومختلفا عنه. فهو الأجنبي والغريب والبعيد. وكونه كذلك ليس مدعاة لمعاداته أو قتله. إنّ الاحتكاك الثقافي مع الغرباء، والتخلي عن الشوفينية والتركّز حول الذات، إنّ كلّ ذلك يفضي إلى نسبية القيم، ويجعلك تنظر إلى ثقافة الآخر من موقع هذا الآخر وليس انطلاقا من عدستك الذاتية. غير أن الغربيين وبحكم تفوقهم على الشرق لم يكونوا مستعدين للتخلي عن مصالح الامبراطورية. بدا الأمريكي عاريا من طلائه السياسي، مكشوبا على حقيقته الكولونيالية. إنه مجرد كوبوي جاء يستعرض قوّته على المستضعفين في الأرض، بعيدا عن حدوده بآلاف الأميال. كان المترجم العراقي يعاني الانشطار الهووي إلى أن اصطدم بالجدار النفسي الذي يقيمه المستعمر بينه وبين الأهالي. إن الأمريكي لم يكن مهيمًا لقبول آخره، الذي صنعه بدبابته، ثم تنكّر له.

خاتمة :

الرواية باعتبارها مصنّعا ثقافيا، هي الجنس الأدبي الأكثر قدرة على احتواء حروب العصر الثقافية والإثنية. ولا تزال هيمنتها على الساحة الأدبية تتوسّع وتعمّق، ليس فقط في الغرب، بل في كل ركن من أركان اليابسة، وبكل لغات العالم المكتوبة والمسموعة. إنّ حروب العصر كما يجادل إدوارد سعيد باستمرار هي حروب ثقافية، وما العنف الذي يرافق هذه الحروب، إلا إحدى أدوات الحرب، من بين أدوات حرب أخرى كثيرة.

لقد كشفت روايات ياسمينه خضرا عن قدرة فائقة على تمثيل الهويّات في صراعاتها المريرة من أجل البقاء. وأشدّ ما يكون هذا الصراع احتداما، أثناء الحروب الاستعمارية، التي تبدو أحيانا كثيرة وكأنّها عمليّات مثاقفة تحت الإكراه، وغير متكافئة. تحتاج الأفكار لكي

تُثَبَّتْ على الأرض قوّة مادّيّة تعضدها ولذلك تلجأ الكولونيالية إلى العنف المفرط من أجل فرض رؤيتها للعالم وأنماط عيشها وثقافتها على مستعمراتها. نلمس هذه الرغبة في رواية "فضل الليل على النهار" حيث تعبّر الكولونيالية عن وجودها بطريقتين: القوة العسكريّة والثقافة. وهو الشأن نفسه في رواية "أشباح الجحيم" و"أجراس كابول" و"الصّدمة". يتعلّق الأمر في مثل هذه الروايات بالصراع الذي ينشأ عن الاختلاف الثقافي، وتمثيل الهوية. يشعر المستعمر في مثل هذه الروايات بالتهديد في هويّته وقيمه الحضارية، فينتفض للمقاومة، ويتصدّى له المستعمر بكل إمكانياته الماديّة والعسكريّة من أجل قمعه، وإسكاته، أو تحييده وتحويله إلى تابع خانع، ومطيع، ومستسلم لسيّده، طمعا في بعض الغنائم.

إن القدرة على تمثيل الذات في صراعها مع آخرها بسبب الاختلاف الثقافي، والقدرة على سرد الهوية في مواجهتها لمناوئها، إنّ ذلك أضحى من الوظائف الجليّة التي يؤدّيها السرد الرّوائي ضمن تشكيل لغوي وجمالي عالي الاشتغال. لقد كانت مسألة الهوية وتمثيلاتها حاضرة بقوة في روايات ياسمينه خضرا، وعلى الخصوص في حالات الاستعمار، حيث توضع الهوية الجماعيّة موضع اختبار؛ وقد كان ذلك هو الشأن بالنسبة لرواية "أشباح الجحيم".

- الهوامش والاحالات:

- ١- جان فرونسوا ماركيه، مرايا الهوية، ترجمو كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط أولى ٢٠٠٥. ص ١٥.
- ٢- رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربيّة، لبنان، ط أولى ٢٠١٣، ص ٢٣.
- ٣- نادر كاظم، الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت، ط الثانية ٢٠١٦. ص ١٣٢.
- ٤- المرجع نفسه، ص ١٣١.
- ٥- أمين معلوف، الهويّات القاتلة، ترجمة نبيل حسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط الأولى ١٩٩٩. ص ٧-٨.
- ٦- طوني بينيت - لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، معجم مصطلحات، ترجمة سعيد الغانمي، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت-لبنان، ط الأولى ٢٠١٠. ص ٧٠٠-٧٠١.
- ٧- المصدر نفسه، ص ٧٠١.
- ٨- المصدر نفسه، ص ٧٠٢.
- ٩- إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط الأولى ١٩٩٦، ص ١٠٣.
- ١٠- نسيم البيطار، حدود الهوية القوميّة، دار الدوحة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط الأولى ١٩٨٦. ص ١٧.
- ١١- المرجع نفسه، ص ١٩.
- ١٢- نسيم البيطار، مرجع مذكور، ص ٢٢.
- ١٣- المرجع نفسه، ص ٣٢.
- ١٤- نسيم البيطار، مرجع مذكور، ص ٥٠.
- ١٥- تيزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة، ترجمة ربي حمود، دار المدى، دمشق، ط أولى ١٩٩٩. ص ٩٠.
- ١٦- نسيم البيطار، مرجع مذكور، ص ٥٩.
- ١٧- سعيد إدوارد، الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب لبنان، ط الثالثة ٢٠٠٤. ص ٣٤٣.
- ١٨- ياسمينه خضرا، أشباح الجحيم، ترجمة محمد ساري، دار الفارابي (لبنان)، سيديا (الجزائر)، ط أولى ٢٠٠٧. ص ٣٦.

- ^{١٩}- نفس المصدر، ص ١٣٠.
- ^{٢٠}- سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتاب العلميّة، بيروت-لبنان، دون ذكر السنة، ص ٢١٤.
- ^{٢١}- الرواية، ص ١٣٠.
- ^{٢٢}- المصدر نفسه، ص ١٣١.
- ^{٢٣}- ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، ترجمة محمد ساري، وزارة الثقافة، ص ٦٦-٦٧.
- ^{٢٤}- مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، الامبراطورية، تعريب فاضل جنكر، مراجعة رضوان السيّد، العبيكان-العربية السعودية ط ٢٠٠٢. ص ١٩٣.
- ^{٢٥}- سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت-لبنان. الطبعة العربية السابعة ٢٠٠٥. ص ٨٤.
- ^{٢٦}- ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، ص ٦٧.
- ^{٢٧}- ياسمينه خضرا، أشباح الجحيم، ص ١٨.
- ^{٢٨}- المصدر نفسه، ص ٤٧.
- ^{٢٩}- ياسمينه خضرا، أشباح الجحيم، ص ٢١.
- ^{٣٠}- المصدر نفسه، ص ٢٢.
- ^{٣١}- أشباح الجحيم، ص ١٦٣.
- ^{٣٢}- مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، مرجع مذكور، ص ٢٠٠.
- ^{٣٣}- المرجع نفسه، ص ٥٣٠.
- ^{٣٤}- أشباح الجحيم، ص ١٦٣.
- ^{٣٥}- ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة، ترجمة محمد شيا، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت-لبنان ط. الأولى ٢٠٠٥. ص ٣٣.
- ^{٣٦}- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

قائمة المصادر والمراجع :

١. إدوارد سعيد، تعقيدات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط ١، ١٩٩٦.
٢. أمين معلوف، الهويّات القتالة، ترجمة نبيل حسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط ١، ١٩٩٩.
٣. تيزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة، ترجمة ربي حمود، دار المدى، دمشق، ط ١، ١٩٩٩.
٤. جان فرونسوا ماركيه، مرايا الهوية، ترجمو كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط ١، ٢٠٠٥.
٥. ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة، ترجمة محمد شيا، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت-لبنان ط ١، ٢٠٠٥.
٦. رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربيّة، لبنان، ط ١، ٢٠١٣.
٧. سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، ط ٧، ٢٠٠٥.
٨. سعيد إدوارد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب لبنان، ط ٣، ٢٠٠٤.
٩. سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتاب العلميّة، بيروت-لبنان، (د ت)
١٠. طوني بينيت - لورانس غروسبيرغ، ميجان موريس، معجم مصطلحات، ترجمة سعيد الغانمي، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت-لبنان، ط ١، ٢٠١٠.
١١. مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، الامبراطورية، تعريب فاضل جنكر، مراجعة رضوان السيّد، العبيكان-العربية السعودية ط ٢٠٠٢.
١٢. نادر كاظم، الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت، ط ٢، ٢٠١٦.
١٣. نديم البيطار، حدود الهوية القوميّة، دار الدوحة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط ١، ١٩٨٦.
١٤. ياسمينه خضرا، أشباح الجحيم، ترجمة محمد ساري، دار الفارابي (لبنان)، سيديا (الجزائر)، ط ١، ٢٠٠٧.
١٥. ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، ترجمة محمد ساري، وزارة الثقافة.

